تأبين
محمد جسوس
(1938-2014)

في بحر السنة الجارية، رحل عننا الأستاذ محمد جسوس إلى جوار ربه تاركًا وراءه أجيالًا من الباحثين من ساهم بتفانٍ في تكوينهم، ورصيدا هائلاً من الإجتهادات والدراسات النظرية والمنهجية والبيانوغرافية. لذا شكل فقدانه خسارة لا تعوض، سواء بالنسبة لزملائه أو طلابه، أو بالنسبة لمهبيه وأصدقائه من رافقته في درب النضال السياسي. لقد ترك بصمات واضحة على البحث والتدريس في ميدان علم الاجتماع، بحيث يتعدد التأريخ لهذا العلم في المغرب دونا الرجوع إلى المفاهيم التي عمل بجد على تأصيلها، والأطر النظرية التي ساهم بفعالية كبيرة في تطويرها ونشرها، والمناهج التي وقفها في أبحاثه وناقشها مع طلابه.

ولعل من أهم القضايا التي استعرت الفضول العلمي لدى محمد جسوس التساؤل حول العوامل المفسرة لتوقيف المغرب في مسيرته التنموية؟ ومحاولة الجواب عن هذا التساؤل أدت به إلى الرجوع للناضِي، أي للتاريخ. إلا أنه عند قراءة بعض النصوص التاريخية، لاحظ، عند مطلع السيناريو، أنه يصعب على الباحث إيجاد خط رابط. بل ما يسجله هو تركيز بعض المؤرخين على دراسة الجوزيات والاهتمام أساسا بالتاريخ الحدثي، وذلك في تعارض تام مع المنهج الخلدوني؛ هو الاقتصار على مقاربة التاريخ الغربي عبر "بنيته الفوقية" في تجاهل بعيد المدى "بنيته التحتية"، أي للجيل والقوام الحية والمميزة.

إلى جانب ذلك، دعا محمد جسوس إلى اعتقاد منهجية تاريخية قائمة على أساس الفكر النقدي وتحليل وترسي الأحداث الدالة والخاسمة، وربط الأحداث
بالمجتمع والبحث عن مبادئ التناسك. ورفض توظيف مفهوم "العنابة" في دراسته للبنات الاجتماعية التقليدية، مبرزاً ما يعتل في داخلها من أحداث وسيرة، ومثبنا عوض ذلك مفهوم "النسبة الثقافية" الذي تتعرض بمقتضى المفاصلة بين الأشكال الثقافية، و"تعدد أنماط التقليد" التي عرفها المجتمع الغربي. كما أبرز انتهاءها حضارة أوسط من ميزاتها الأساسية توفرها على تاريخ مكتوب. وقصر استعمال المنهج الإنسانى على وصف ما يتخلل البنات القبلية من ديناميات العbraska والانتماء. لقد عبر في غير ما مناسبة عن رغبته في نشوء تعاون شامل بين السوسيولوجيين والمؤرخين.

وضدها على التوجهات التي تلغي من حساب الاعتقاد على بعض المكتسبات المعرفية التي أقرها العلوم الاجتماعية في عهد الحياة، عمل محمد جسوس، طيلة سنوات ورفقة العديد من طلابه، على إنتاج حصيلة نقدية للأبحاث السوسيولوجية والأثروباولوجية التي تمت في تلك الحقبة حول مواضيع من قبل الزوايا، والقبائل، والنظام المخزني، واجاجعة، والقيادات الجهوية، والصلحاء، والأنظمة الزراعية والعقارية، وسيورات التحديث، إلخ.

لا أنه بالرغم مما تميزت به العديد من هذه الأبحاث من علاج نظرية ومنهجية، فقد كان محمد جسوس مقتنعا بأهمية المناهج المعمدة في بعضها، بل حتى بمصادقية بعض مضافاتها التي سمحت للإدارة الاستعمارية، في نظره، لتحقيق نجاح نسبى في تهدئة المجتمع الغربي. وأبداً إعجابه بجوانب العلمية المميز لبعض "الأطرافات الكبرى" من قبل تلك التي أنتجها جاكي بيرك، وروبير مونطاني حول قبائل الأطلس الكبير. غير أنه دعا إلى تحمل المجتمع الغربي، ليس اعتقاداً على تقارير الرحالة والمستكشفين ورجال البعثات الدينية الذين يغلب أن يكون يتحمل المجتمع سطحيا وسريا، وإنها عبر التكرار على أبحاث ميدانية عميقة ودقيقة. لقد شدد على ضرورة مناقشة المسائل الأساسية للسوسسولوجيا في عهد الحياة علميا، وليس إيديولوجياً أو سياسياً. وكان من نتائج هذا الاختيار إنتاج الطلاب للعديد من أبحاث الإجازة والسلك العالي والدكتوراة حول قضايا وإشكاليات تتصل بنتائج هذه المرحلة الهامة من تطور البحث الاجتماعي في المجتمع الغربي.
ومن الجدير بالذكر أنه لم يتغفل عنا تميزت به العديد من هذه الأبحاث من مشاكل نظرية ومنهجية، حيث أبدى استغرابه من اقتراحها على مقاربة بعض الظواهر والقضايا دون غيرها:

- ركزت على دراسة المحلي ضدًا على التوجهات الوطنية والحضارية للمغرب;
- اهتمت على وجه الخصوص بإبراز الاختلاف بين العرب والأمازيغ مستغلة في ذلك النصوص الجلدونية ذاتها;
- سعت على وجه الخصوص إلى دراسة كل ما ليس له علاقة بالإسلام والثقافة العربية;
- عمدت إلى التركيز على كل ما يفرق ولا يوجد.

وفي دراسته للقبيلة، تنبيه ما نجم عن مقارنته لها من قطاعات:

- قطيعة مع المقاربات الأمريقالية، وذلك بالرجوع إلى رصد التحولات التاريخية التي أدت إلى إعادة بناء البنية القبلية عند مطلع القرن العشرين;
- قطيعة مع إطار المونوغرافيا، وذلك بإدراج القبيلة ضمن المجال الوطني والمتوسطي والإسلامي والشمال-إفريقي;
- قطيعة على مستوى الموضوع، حيث لا يقتصر على تحليل الأعراف والطقس وأشكال التدين، بل يركز بصفة خاصة على تحليل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحالية للتوجهات المستقبلية.

لقد كان التفكير المنهجي يدخل كتابات وفكر محمد جسوس بإصرار وانظام، حيث كان يؤكد باستمرار على استحالة التحقق من علمية بحث ما دون قيام الباحث بتوضيح خطواته المنهجية وختلف الآليات التي اعتمدها في تطبيقه وبلوغه لنتائج معينة. لقد سعى منذ رسالة الماستر التي أنجزها في جامعة لافال بكندا سنة 1960 حول الحضارة القبلية في المغرب إلى الجمع بين التحليل الوظيفي والتحليل التاريخي، حيث كان يتفق مع كله من فرانس بوس وإيفانس بريتشارد في ربط فهم الظواهر المعقدة، ليس فقط برصد مميزاتها، ولكن أيضًا بمعرفة الكيفية التي تم بها إنتاجها. وكان أيضًا موقعاً باستحالة تفسير الظواهر.
الاجتماعية اعتيادًا على سببية أحادية، وبصعوبة التعمق في فهمها اعتيادًا فقط على المقاربة الماكروسوسوسولوجية. حيث اعتبار أنه للبرهنة على اندماج البنية الاجتماعية لا يكفي التركيب بين مكوناته، بل يتعين، فوق ذلك، أن تتجسد وتتوحد مكونات هذه البنية في التجربة الفردية. لقد سعى من وراء ذلك إلى دراسة الكائن الاجتماعي الشمولي من خلال المعنى الفردي.

ومع أن محمد جسوس وقف في بعض كتاباته النهج الديكاميي، إلا أنه لم يقتصر بناه على تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، بل تعدد ذلك الإطار سعياً إلى الاستلهام من المناهج المتعددة لدى بعض الباحثين الأوروبيين والأمريكيين من قبيل ماكس فير ومارس موس وروبرت ماتز وزيلما وراندكليف براون وكلود ليفي ستروس وبيرنر بيردموخ وآخرون. كما انفتح بشكل واسع ومثير للغاية على سوسوسولوجيا التنمية في أمريكا اللاتينية وامتجازاتها في أوروبا والعالم العربي، حيث ناقشها في درسه الجامعي وبين لطلابه إسهاماتها وحدودها.

وكان كل من يقرأ أو يستمع لمحمد جسوس ينبغي بسعة الاطلاع التي كان يتميز بها بخصوص التراث السوسوسولوجي والأنثروبولوجي العالمي، بل بمجمل الكتابات الرائجة في العلوم الاجتماعية بصفة عامة. لقد نجح، فوق ذلك، في التوفيق بين التقاليد السوسوسولوجية في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية وساهم فعالية ودقة متناهية في التعريف بفماهؤهما وطروحاتها النظرية. كما كان ذا اطلاع واسع في مبادئ التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي والإستدموولوجيا والدراسات التنموية بوجه عام.

إضافة إلى كل ذلك، عمل محمد جسوس طيلة مساره الجامعي، على خلق وترسيخ تقاليد وأخلاقيات جامعية من شأن التشبيه بها حالياً ومستقبل أن يحقق ارتقاء مؤسساتنا الجامعية لما نريده لها من نجاح وتوافق في أداء رسالتها. كما طور أساليب بيداغوجية جديدة، من شأن إجتهادها والاستلهام منها أن يقود تدريس العلوم الاجتماعية إلى بلدنا إلى بر النجاح. إننا نجده شكرنا لاستذاننا محمد جسوس على كل ما قدمه لنا من ثمرات علمه وتجربته، وتؤكد له بأنه سيظل حيا في ذاكرتنا وحاضراً في وجداننا وعقولنا.

المختار الهرس